بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

القرآن كتاب الله الجامع، ولا يكون جامعا إلا والمجموع فيه أمور كلية، وله منهاج تتبعه العقول والقلوب لإدراك معانيه ومراميها وإجراء ما لا يتناهى من الحوادث على قواعده التي تهدي للتي هي أقوم وتبشر المؤمنين بغد أفضل، يتأدون إليه بالتفكير الحر،والابتكار المستمر، والعمل الصالح لعمارة العالم الذي استخلف الله فيه عباده.

والإسلام جامع بين الدين والشريعة. أما الدين فبينه كله. وأما المعاملات فبين أصولها وأثبت أصل الاجتهاد بين أصول الفقه، ليصيره العلماء منهجا عاما للتفكير الإسلامي ويزدهر على أغصانه كل فروع العلم، حتى إذا انتقلت العلوم الإسلامية إلى أوروبة، كان المنهج أرقى بالفكر وأبقى على الدهر حتى التزمته أوروبة. وأصبح من المسلمات العلمية أن المنهج العلمي المعاصر يمد إلى المنهج الإسلامي بأوثق أسبابه.

والكتاب الحالي يقدم – في وجازة بالغة – بعض بيان في هذا الشأن. مبتدئا بمصدر المنهج وهو القرآن وإعجازه في أساليبه وألفاظه ومعانيه، وكليات أساسية فيه، يقوم عليها علم أصول الفقه، كما استنبطه الإمام الشافعي من نصوص القرآن ووضع له ضوابطه وشروطه للاجتهاد بمنهج عام للاستقراء والاستنباط والقياس، تجاري في الأخذ به العلماء في جميع العلوم.

ولقد أخذنا أخذ المنهج في بيان عمل المسلمين به، فاستقرأنا أعمال عشرين من الأعلام الذين أضاءت علومهم ظلمات العصر الوسيط، في الفقه والفلسفة الدينية واللغة والنحو، وفي العلوم الرياضية والفلكية والطبيعية والكيميائية والطبية والصيدلة والفلسفة الاجتماعية، ممن غدوا طلائع عصر الإحياء في أوروبة، فصحت – في عصر النهضة – على أضوائهم أو كما عبر بعض المستشرقين من الأوربيين (ورثت عنهم روح بيكون) يقصدون الحرية الفكرية واستقراء الطبيعة والاستنباط منه بالإخلاص وإتقان التجارب التي نادى بها في كتابه (المنهج الجديد).

وكان طبيعيا أن نستعرض أصول الفقه الإسلامي وعمل العلماء به في الباب الثاني، وأن ننتقل في الباب الثالث إلى بيان علامات الطريق التي سلكتها أوروبة إلى علوم العرب،

مرحلة فمرحلة، سواء بأوامر من رجال الدين أو أصحاب السلطان أم بعمل الجامعات عموما أو المدارس التي أنشئت لترجمة علوم العرب خصوصا، وقد أحصينا منها بضع عشرة منتشرة في كل أوروبة على مدى قرنين، أم بجهود الرهبان في الأديرة التي لا يمكن استقصاؤها أم بالتلقي المباشر في معاهد الأندلس وصقلية أم بالرحلة إلى بلدان المشرق العربي، يستوي في ذلك جهود المسلمين والمسيحيين واليهود.

وكان لزاما أن نتصدى في الباب الرابع لكتاب (المنهج الجديد) الذي وضعه (بيكون) في القرن السابع عشر للميلاد، لتجري مضاهاة دقيقة لما حواه، على خصائص المنهج الإسلامي ودقائق أصول الفقه التي عمل بها المسلمون، لنرى رأي العين مطابقة متناهية في الدقة، حيث تجمعت في المنهج الجديد – بانتقاء ملحوظ أو بفيض من عناية السماء – خصائص المنهج الإسلامي فصارت قواعد لكتاب (المنهج الجديد) بتمامه.

وفي البابين الخامس والسادس أوضحنا ثمرات العمل بالمنهج القرآني، الذي هيأ للفقه الإسلامي ومدارسه قدرتها الفائقة على التطور في التطبيق، ومهد للقضاء الإسلامي أن يجعل من خشية الله منهاج حياة، تبلغ المجتمعات الإسلامية أعلى مبالغها كلما عملت به.

* * *

وبعد، فالكتاب الحالي يظهر في عهد أعدت للصدور فيه قوانين مستمدة من الفقه الإسلامي، لتحل محل القوانين المستوردة من التشريعات الأوربية، وهذه العزمة إيذان بطلوع فجر جديد، يطلع المسلمون في إشراقه ورحبات آفاقه على درب السلف الصالح من سنن الرسول عليه الصلاة والسلام وعمل صحبه، فيتناصحون في العلم، ويغيرون ما بأنفسهم، آخذين بأسباب المعرفة المتنوعة، مقتحمين أبواب الكشوف الحديثة والاختراع، عاملين بالمنهج العلمي المعاصر، عالمين أنهم في كل ذلك يستردون بضاعتهم ولا يستوردونها.